العدد 2899 - السنة العاشرة
الإثنين 3 صفر 1439 - الموافق 23 أكتوبر 2017
Monday 23 October 2017 - No.2899 - 10th Year

مواصفات البيت المسلم

البيت هو موطن سكن الأسرة واستقرارها، ومكان راحة أفرادها، والملجأ من تعب الحياة وكدها، ولذلك يفضل اختياره -إن تيسر- وفق مواصفات خاصة، لتحقيق السكينة والهدوء والراحة والاستقرار.

واختيار البيت بمواصفات خاصة يعد مشكلة اجتماعية كبيرة في كثير من مجتمعاتنا الإسلامية، وتؤثر في هذه المشكلة عوامل متعددة، منها عوامل اقتصادية، مثل ضيق دخل الزوج أو سعته، ومنها عوامل اجتماعية، وغير ذلك من العوامل النفسية والذوقية والعامة.

ولذلك فإن للبيت المسلم مواصفات يفضل مراعاتها كلما أمكن ذلك؛ حتى يكون بيتا مثاليًا مريحا لمن يعيشون فيه، من غير مغالاة ولا سرف، وفي ضوء الممكن والمتاح، مع الرضا برزق الله وما قسمه.

ومن هذه المواصفات

البيئة الاجتماعية الصالحة: وهي أول ما تضعه الأسرة أمام عينيها وهي تختار بيتها، فإن للبيئة أثرا كبيرا ودورا خطيرا في سلوكيات أصحابها، وقد قيل في الأمثال: اختر الرفيق قبل الطريق، والجار قبل الدار. لذا يجب ألا يكون البيت في منطقة مشهورة بآفات معينة؛ كتجارة المخدرات وأماكن الفسق والخلاعة؛ حتى لا يتأثر بذلك الأبناء.

وقد قيل: إن قيمة البيت تزداد بانتقاء جيرانه. وقد حكي أن رجلا كان يسكن بجوار الإمام أبي حنيفة، وأراد أن يبيع بيته، فجاءه رجل ليشتريه منه، فقال صاحب البيت: أبيعك البيت بثمن، وأبيعك جوار أبي حنيفة بثمن آخر.

وإذا كان الجيران مسلمين يعرفون للجيران حقوقهم، ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم، فلن يؤذوا أحدا، ولن يُلقوا بأقذارهم أمام البيت، ولن يحدثوا صخبا، ولن يفعلوا ما يجرح المشاعر، وإنما يتسامَوْن عن الصغائر ويتعالَوْن عن الدنايا؛ ليكونوا على مستوى إسلامهم وقدر إيمانهم.

والبيت المسلم يراعي جيرانه -أيضا- ويحفظ لهم حقوقهم، ويتحسس أحوالهم وحاجاتهم، ويعينهم ويرشدهم ويحفظ أعراضهم، وذلك لعظم حق الجار، قال صلى الله عليه وسلم: (مازال جبريل يوصيني بالجار؛ حتى ظننت أنه سيورثه). (متفق عليه).

والبيت المسلم يلتزم بحقوق جيرانه كاملة، كما وضحها رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث روى أنه قال: (أتدرون ما حق الجار؟ إن استعان بك أعنته، وإن استنصرك نصرته، وإن استقرضك أقرضته، وإن افتقر عدت عليه، وإن مرض عدته، وإن مات تبعت جنازته، وإن أصابه خير هنأته، وإن أصابته مصيبة عزيته، ولا تستطل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، وإن اشتريت فاكهة فأهد له، فإن لم تفعل فأدخلها سرًا، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده، ولا تؤذه بقتار قدرك (رائحة طعامك) إلا أن تغرف له منه، ثم قال: أتدرون ما حق الجار؟ والذي نفسي بيده، لا يبلغ حق الجار إلا من رحمه الله) (البزار).

الموقع: وهو من أهم الأمور التي تجعل البيت مثاليًا، ويحسن أن يتوافر في موقع البيت عدة أمور، منها توافر الخدمات ومتطلبات المعيشة -ما أمكن ذلك- كالكهرباء، والصرف الصحي، والمياه الصحية، ويحسن أن يكون قريبا من عمل الزوج ومدارس الأبناء وأسواق الخدمات المختلفة، ففي ذلك تيسير لحركة الحياة واختصار للجهد والوقت، أن يكون البيت في منطقة هادئة -إذا تيسر ذلك- بعيدا عن الشوارع الرئيسية والميادين العامة، فكلما تحقق ذلك؛ تمتع أهل البيت بسكن هادئ وراحة نفسية.

الناحية الصحية: وذلك يتحقق بوجود الإضاءة الكافية والهواء النقي في موقع البيت، وأن يكون بعيدا عن المستنقعات والبرك وأماكن تجمُّع المهملات، وهناك بعض الحالات الخاصة التي تُراعَى عند اختيار السكن، فإذا كان في الأسرة مريض بالقلب أو بشلل الأطفال مثلا يجب أن يكون السكن في طابق غير مرتفع، خاصة إذا لم يوجد مصعد كهربي، كذلك يستحب ألا يكون المسكن في الأماكن الصناعية الملوثة بالأتربة والدخان.

المساحة: مهما كانت مساحة البيت المسلم صغيرة، فإن المرأة يمكنها أن تستثمر هذه المساحة لتحقيق الراحة والسكينة لأفراد البيت. فالبيت الواسع الفسيح غير المنظم بيت لا راحة فيه، والبيت الضيق الصغير مع حسن الترتيب وجودة استعمال مرافقه بيت ملؤه الراحة والسعادة، ولا شك أن كل إنسان يتمنى أن يعيش في سكن فسيح رحب، فالمسكن الواسع من الأمور التي تسعد الأسرة وتريحها نفسيًا وصحيًا، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو، فيقول: (اللهم وسِّع لي في داري) (أحمد).

واتساع المكان يمنح الفرصة الكافية لتنظيمه، وترتيب أثاثه بشكل أفضل ومتجدد دائما؛ حيث يمكن التغيير بين قطع الأثاث داخل الحجرة الواحدة والتبديل بين الحجرات، ولا شك أن التغيير في البيت يعطي إحساسا بالتجديد، ويساعد على التخلص من الرتابة والملل اللذين قد ينتابان الإنسان من وقت لآخر.

كما أن اتساع المكان -إن تيسر- يعطي الفرصة لتخصيص حجرة لاستقبال الضيوف؛ مما يساعد على توفير الراحة لهم، وحسن استقبالهم، ويكفل الراحة لأهل البيت وعدم التضييق عليهم، ويعطي الفرصة لتخصيص حجرة للأطفال فتحقق الراحة لهم، وتكون مكانا لمذاكرتهم ولعبهم.

والمساحة المتسعة تساعد على أن تلحق بالبيت حديقة تحيط بجوانبه، تكون مكانا للعب الأطفال ومرحهم، وتعطيهم الفرصة للاهتمام بالزرع والعناية به وتنسيقه، وكذلك فإن وجود البيت في شارع واسع ونظيف يعطي فرصة أفضل للتهوية والإضاءة الجيدة، وتكون المسافة بينه وبين البيوت المجاورة مناسبة؛ فلا تتكشف عورات البيت.

وقد لا تسمح الظروف بتوافر السعة في البيت، وهذا لا يعد عذرا ألا يكون البيت جميلا مريحا، فالتنسيق الجيد يجعلنا نتغلب على مشكلة ضيق البيت، وقد يكون البيت واسعا لكنه إذا كان مضطربا وغير منظف أو غير منظم بدا ضيقا مزعجا.

وهناك عدة وسائل تساعد على الإحساس بالاتساع والتغلب على عيوب ضيق المكان، ومنها:

- ارتفاع جدران البيت.
- طلاء السقف بلون فاتح إذا كان منخفضا، وطلاء الحوائط بألوان فاتحة.
- تزيين الجدران بصور طبيعية للبحار أو الأشجار، واستخدام المرايا في بعض الطرقات أو الأماكن؛ لتعطي احساسا بالاتساع.
- استخدام ورق حائط خطوطه أفقية إذا كانت الحجرة ضيقة، وورق خطوطه رأسية إذا كان السقف منخفضا.
- تقليل عدد الحواجز الثابتة، مثل الحوائط، واستبدالها بحواجز متحركة، مثل الستائر أو الحواجز الخشبية (البرفانات) التي يمكن تحريكها عند الحاجة أو استقبال عدد كبير من الضيوف، أو ما شابه ذلك.
- استعمال بعض قطع الأثاث لأكثر من غرض.
- استخدام أثاثات ذات أحجام مناسبة لمساحة البيت، وعدم الإكثار من الأثاثات في البيت الضيق.

التهوية: التهوية الجيدة في البيت من الأمور المهمة التي تجعل منه بيتا صحيًا؛ ويمكن أن تتحقق التهوية الجيدة عن طريق وجود عدد مناسب من النوافذ تسمح بدخول الهواء وتجدده يوميًا؛ ما يساعد في القضاء على الميكروبات والحشرات والروائح الكريهة.

لذلك يجب فتح النوافذ مع مراعاة التوقيت المناسب، فإذا كان البيت يقع في منطقة صناعية فلا تفتح النوافذ وقت عمل المصانع، لتجنب العوادم التي تسبب الأضرار الصحية.

والمطبخ أكثر أركان البيت احتياجا إلى التهوية الدائمة؛ حيث إن وجود المواقد يعمل على تصاعد الأبخرة الساخنة ورائحة الطعام، وقد تؤثر الأبخرة على نظافة الجدران وتغيّر رائحة البيت، ويمكن التغلب على ذلك باستخدام أجهزة طرد الهواء الكهربائية (الشفاطات) كما يجب الاهتمام بتهوية الحمّام؛ للتخلص من الروائح غير الطيبة، ومن الميكروبات.

التشميس: هناك حكمة تقول: البيت الذي تدخله الشمس لا يدخله الطبيب؛ لأن أشعة الشمس تعمل على تطهير البيت، ومده بالدفء اللازم في الشتاء؛ لذا يجب مراعاة الأوقات التي يتعرض فيها البيت إلى أشعة الشمس حتى يمكن الاستفادة منها؛ فإذا كان البيت في بيئة صحراوية حارة فيجب عدم السماح للشمس بدخوله بصورة مستمرة، خاصة إذا كانت الشمس عمودية عليه؛ حتى لا تجعله حارًا. أما إذا كان البيت في بيئة ساحلية باردة فيراعي أن يكون توافر الشمس فيه لأكبر وقت ممكن؛ حتى تمنحه الدفء وتقلل من برودته.

يكفيك حب الله عز وجل

إن مما يتمناه كل مؤمن في هذه الدنيا التيقن من حب الله عز وجل، فتجده في كل مواقف حياته يتلمس هذا الحب ويبحث عنه، فإذا وقع في أمر ما تدبّره وحاول الوقوف على خفاياه باحثا دون ملل عن أثر حب الله له، فإذا أصابته مصيبة صبر لله تعالى واستشعر لطف الله عز وجل فيها حيث كان يمكن أن يأتي وقعها أشد مما أتت عليه، وإذا أصابته منحة خير وعطاء شكر الله سبحانه وتعالى خائفا من أن يكون هذا العطاء استدراجا منه عز وجل، فقديما قيل: «كل منحة وافقت هواك فهي محنة وكل محنة خالفت هواك فهي منحة»، لهذا فإن المؤمن في حال من الترقب والمحاسبة لا تكاد تفارقه في نهاره وليله، فقيما يظن الكافر أن عطاء الله إنما هو دليل محبة وتكريم، يؤمن المسلم ألا علاقة للمنع والعطاء بالحب والبغض لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الدين إلا من يحب» رواه الترمذي، بل إن حب الله لا يُستجلب إلا بمتابعة منهجه الذي ورد ذكره في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، فإن اتباع هذا المنهج هو الذي يوصل إلى محبته تعالى: «لأن حقيقة المحبة لا تتم إلا بموالاة المحبوب، وهي موافقته فيما يُحب ويُبغض ما يبغض، والله يحب الإيمان والتقوى ويبغض الكفر والفسوق والعصيان» «طب القلوب» ابن تيمية، ص183. والوصول إلى محبة الله عز وجل يستوجب أيضا أن يترافق حب العبد لله مع حبه لرسوله عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» آل عمران: 31.

مراتب حب الله عز وجل

إن حب الله لعباده هو على مراتب ودرجات متصلة بحب العبد لله، فكلما زاد حب العبد لله ورسوله زاد حب الله عز وجل لهذا العبد، وأول من يستحق هذا الحب هم أنبياء الله سبحانه وتعالى الذين جعلهم الله سبحانه وتعالى أخلاءه فقال عز وجل: «واتخذ الله إبراهيم خليلا» النساء، 125.

وقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «إن الله اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا» أخرجه الحاكم، والخلة «اختص من مطلق المحبة بحيث هي من كمالها، وتخللها الحب حتى يكون المحبوب بها محبوبا لذاته لا شيء آخر» «طب القلوب» ص229.

ويأتي بعد ذلك حب المؤمنين وهم أولياء الله المتقين.

ويتفاوت المؤمنون في هذا الحب بتفاوت أعمالهم التي تقربهم إلى الله عز وجل، قال سبحانه وتعالى في الحديث القدسي: «من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» رواه البخاري.

وهذا التقرب يدرك العبد كيفيته بالاطلاع على أوامر الله ونواهيه، فينفذ الأمر ويتجنب النهي، ويترك المكروه، كما يفعل المحبوب. جاء في الحديث القدسي «وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه»، وقال عز وجل في تتمة هذا الحديث القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» رواه البخاري.

وقد عدد القرآن الكريم الخصال التي تقرب المؤمنين إلى الله وتجعلهم يفوزون بحبه، فورد في كتابه الكريم أنه سبحانه وتعالى يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويحب المتقين، ويحب الصابرين ويحب المتوكلين، ويحب المقسطين، ويحب المحسنين.

فعلى العبد أن ينمّي علاقته بربه وأن يحاول جاهدا أن يتصف بالصفات التي تقربه منه عز وجل وتقوّي في نفسه محبته، فإذا قويت هذه المحبة أصبح ممن يستحقون حب الله ورضوانه.

التماس حب الله عز وجل

يستطيع المؤمن الذي اتخذ من القرآن والسنة منهجا لحياته أن يتلمس أثر حب الله ورضاه في نفسه، وذلك بطرق مختلفة أهمها رضاه عن الله عز وجل، فمن كان راضيا عن الله عز وجل كان ذلك من أبلغ الدلائل على رضا الله عنه. وقد أكد ابن قيم الجوزية أن العبد يستطيع أن يتلمس أثر حب الله في قلبه في مواطن عديدة منها:

«الموطن الأول: عند أخذ المضجع حيث لا ينام إلا على ذكر من يحبه وشغل قلبه به.

الموطن الثاني: عند انتباهه من النوم، فأول شيء يسبق إلى قلبه ذكر محبوبه. الموطن الثالث: عند دخوله في الصلاة، فإنها محك الأحوال وميزان الإيمان... فلا شيء أهم عند المؤمن من الصلاة، كأنه في سجن وغمّ حتى تحضر الصلاة، فتجد قلبه قد انفسح وانشرح واستراح، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لبلال: «يا بلال أرحنا بالصلاة».

الموطن الرابع: عند الشدائد والأهوال، فإن القلب في هذا الموطن لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه ولا يهرب إلا إلى محبوبه الأعظم عنده».

وتزداد الحاجة إلى الثبات في هذا الموطن الأخير لكون المؤمن أشد عرضة للبلاء من غيره من البشر، خاصة إذا أراد أن يصل إلى الحب المتبادل بينه وبين الله عز وجل.

فوائد حب الله عز وجل

إن أول فائدة تعود على المؤمن الذي يحبه الله عز وجل هي أن يجعله من عباده المخلصين، فيصرف بذلك عنه السوء والفحشاء، قال تعالى: «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين» يوسف: 24.

وهذا الإخلاص يحصل للمقربين الذين جاهدوا في الله حق جهاده، أما المؤمن فينال من هذا الإخلاص على قدر قربه من الله، إلا أن علامات حب الله عز وجل أن يجعل الله له المحبة في أهل الأرض، جاء في صحيح مسلم تعليقا على قوله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودًا» مريم، 96. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في هذه الآية: «إذا أحب الله عبدا نادى جبريل: إني أحببت فلانا فأحبه فينادي في السماء ثم ينزل له المحبة في أهل الأرض».

ومن فوائد حب الله عز وجل التي يجنيها المؤمن في الآخرة غفران الذنوب، لقوله تعالى: «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم» (آل عمران: 31).

ومنها الفوز والنجاة من عذاب يوم القيامة، يروى أنه سئل بعض العلماء أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال في قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ» المائدة، 18. لهذا أدرك علماء الإسلام أهمية حب الله عز وجل فكانوا يسألونه تعالى هذا الحب في دعائهم، ومن أدعيتهم في هذا المجال: «اللهم إني أسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك، اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغا لي فيما تحب، اللهم اجعل حبك أحب إليّ من أهلي ومالي ومن الماء البارد على الظمأ، اللهم حببني إلى ملائكتك وأنبيائك ورسلك وعبادك الصالحين، اللهم اجعلني أحبك بقلبي كله وأرضيك بجهدي كله، اللهم اجعل حبي كله لك، وسعيي كله من مرضاتك» فليس بعد هذا الدعاء إلا التأكيد على أن من لم يكفه حب الله فلا شيء يكفيه، ومن لم يستغن بالله فلا شيء يغنيه.

ثقة المؤمن بوعد الله أشد ما تكون في المحن

يقول الحق تبارك وتعالى: «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» سورة الأحزاب الآية 22.

تشير هذه الآية إلى غزوة الأحزاب وموقف المؤمنين فيها وحاصلها أن زعماء اليهود استطاعوا أن ينجحوا في تأليب قريش وغطفان والأحابيش وزعماء القبائل على المسلمين وساروا في جيش قوامه عشرة آلاف مقاتل.

وقبل وصولهم إلى المدينة كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يعلم بهم واستشار أصحابه ورأوا أنهم لا قبل لهم بهؤلاء إذا التحموا بهم وأشار سلمان الفارسي بحفر الخندق ومكث المسلمون قرابة شهر يحفرون الخندق.

وقبل وصول الجيش الزاحف إلى المدينة كان المسلمون قد فرغوا من تحصين مدينتهم بحفر الخندق فلما بلغت الأحزاب المدينة ورأوا الخندق قالوا هذه كانت مكيدة ما كانت العرب تعرفها قبل ذلك ووقف جيش الأحزاب أمام الخندق. وكلما حاول بعض جندهم اقتحامه حاربهم المسلمون ولم يفلحوا في اقتحامه وسهر المسلمون ليلهم وأيقظوا نهارهم في حراسة ومعهم رسولهم (وحينما حاولت كتيبة من الأحزاب أن تتوجه إلى منزل رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قاتلهم المسلمون طول نهارهم إلى الليل حتى شغلوهم عن صلاة العصر كما يريدون ودعا عليهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يومها وقال شغلونا على صلاة العصر ملأ الله بطونهم نارا).

واستمر الحصار 20 يوما والمسلمون في دفاع مستميت عن مدينتهم (واستطاع حيي بن أخطب أن يقنع زعيم بني قريظة وأن ينكث عهده مع النبي وأن ينقلب مع الأحزاب) وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم وزاغت منهم الأبصار وبلغت قلوبهم الحناجر وأخذت الظنون تختلف في الله تعالى.

فالمنافقون قالوا كلاما قبيحا وسخروا مما كان وعدهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أثناء حفر الخندق حينما وعدهم كنوز كسرى وقيصر فقالوا (يخبركم محمد بأنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق وأحدنا اليوم لا يستطيع أن يبرز إلى الخلاء).

أنهم المرتابون وهم مرضى القلوب وهم المغرورون وفيهم يقول الله تعالى: «وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» ونادى فريق منهم بالرجوع إلى ديارهم واعتذروا للرسول وقالوا إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارا. أما المؤمنون الصادقون فحينما رأوا الأحزاب تنساب حول المدينة وتضيق عليها الخناق وحينما رأوا يهود بني قريظة قد انظموا إلى الأحزاب فلم تطر نفوسهم شعاعا بل جابهوا الحاضر المر وهم موطدوا الأمل في غد مشرق كريم وأنها محنة وسوف تزول قريبا وإنها سحابة صيف عن قريب ستنقشع. فكان موقفهم ما قصه الله علينا في قوله: «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» بل هناك ما يشبه الأساطير في مواقف المؤمنين الصادقين في تلك الغزوة إذ إن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حينما رأى الأمر قد اشتد على المسلمين أراد أن يخفف عن المسلمين ما هم فيه إذ تحملوا ما لم يتحمله بشر.

فبعث إلى عيينة بن حصن وإلى الحارث بن عوف وهما قائدا غطفان أن يرجعا عن المدينة ولهم ثلث ثمار المدينة واستجاب القوم وبدأت المفاوضات وبعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى زعماء الأنصار سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج لاستشارتهما في ذلك.

فقالا له يا رسول الله أمرا تحبه فنصنعه أم شيئا أمرك الله به لا بد من العمل به أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب فأردت أن أكسر عنكم شوكتهم إلى أمر ما. فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة إلا قرى أو بيعا.

أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه نعطيهم أموالنا. ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال له الرسول -صلى الله عليه وسلم-: فأنت وذاك.

وكان الرسول قد كتب صحيفة لغطفان فأخذها سعد ومحا ما فيها وقال: ليجهدوا علينا وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لعيينة والحارث: ارجعا بيننا وبينكم السيف. إنه موقف يكشف عن جوهر المسلمين ونقاسة معدنهم وصلابة عودهم وحقيقة اتصالهم بالله وبرسوله وبالإسلام وتفانيهم في سبيل مبدئهم، إنه اتصال يفرضه إيمانهم العميق بعقيدتهم الراسخة وثقتهم التي لا حدود لها بوعد الله وأنهم أقوى ما يكونون صلة بالله وثقة بوعده إبان المحن والشدائد والنوازل التي لم تزد عودهم إلا صلابة ونفوسهم إلا صفاء وقلوبهم إلا يقينا.

إنه موقف يبين ما تمتلئ به روح المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر والصمود والاحتمال ومن رغبة جياشة في قهر العدو مهما تكتلت قواته وكثر سلاحه أو تعدد حلفاؤه وصدق رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إذ يقول: (إن الله تعالى ليجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمنهم من يخرج أبيض ناصعا كالذهب الإبريز ومنهم من يخرج دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا).

إن هذه المعركة لم تكن معركة قتال بقدر ما كانت معركة أعصاب إذ القتلى من الفريقين يعدون على الأصابع ولقد وقع ثقل المقاومة والدفاع فيها على أصحاب الإيمان الراسخ والنجدة الرائعة فكان عليهم أن يكتموا مظاهر القلق التي انبعثت في نفوس الخوارة الهلوع وأن يعشبوا موجة الإقدام والشجاعة تغلب نزعات الجبن والتردد التي بدت هنا وهناك عند ذوي الإيمان الضعيف. ولقد ظهر المؤمنون الصادقون ذوي نفوس صلبة فحينما مرت العواصف المجتاحة بهم تكسرت حدتها على متن إيمانهم وتحولت الزوابع رغوة وزبدا.

أجل لقد هجموا على الشدائد فأخذوها قبل أن تأخذهم وعلى السنتهم قول القائل: تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدم يقولون هذا مورد قلت قد رأى ولكن نفس الحر تحتمل الظما ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما ألا ليت أمتنا تعلم ذلك حتى لا تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.